في سجلات البطولة والجهاد ضد المستعمر واستقلال الأوطان، يحظى المجاهد الليبى عمر المختار بحظ وافر من صفحات النضال والكفاح، وبذل الروح والنفس محاربًا غطرسة الإيطاليين، الذين أرادوا طمس الهوية الليبية وتحويل ليبيا إلى مستعمرة تابعة لهم يتحول فيها أهل البلاد إلى عبيد يخدمون السادة الطليان.

استمر عمر المختار رافعًا راية الجهاد طوال ٢١ عامًا، خاض خلالها أكثر من ألف معركة مع الإيطاليين، منها ٢٦٣ معركة فى مدة لا تتجاوز عشرين شهرًا، وهى المدة التى تبدأ بتولى «غراتسيانى» قيادة الجيش الإيطالى فى برقة، وتنتهى بموت عمر المختار (سى عمر) يوم ١٦ سبتمبر سنة ١٩٣١.

ذهب عمر المختار ذلك اليوم، ضحية الغدر وشهيد الوفاء، نتيجة غدر الطليان به، وقد وقع أسيرًا فى أيديهم طاهر الصحيفة، لم يدنس تاريخه العسكرى بأى جريمة ولا عمل صغير مخالف لأصول الشرف ومقتضيات المروءة. وشهيد الوفاء، فقد قال حينما توجه للجهاد سنة ١٩٢٣، بعد أن اشتد حوله الحصار وأصبح الجهاد ميئوسًا منه: «ما الفائدة من العيش مهاجرًا ذليلاً؟ يجب أن أعود لأموت وأؤدى بذلك آخر حق علىَّ لله ولبلادى».

وقعت ليبيا فريسة فى أيدى الإيطاليين فى ٢٩ سبتمبر (أيلول) سنة ١٩١١. رفع الليبيون رايات الجهاد أمام حملات الاستيطان والتبشير والتطهير العرقى ومحاكم التفتيش التى أقامها الإيطاليون. على غرار ما حدث فى إسبانيا إبان العصور المظلمة فى القرن الثانى عشر.

نشأة المختار

كان عمر المختار أحد أهم رايات الجهاد الليبى ضد الاستعمار. ولم يكن

المجاهد الوحيد ولا الشهيد الوحيد فى قوافل وجيوش المجاهدين والشهداء الليبيين. وإنما شكلت ظروف استشهاده حالة فريدة، سجلت سطوراً متلألئة فى صفحات التاريخ العربى والإسلامى ضد محاولات النيل منه وطمس هويته ومعالمه. فقد كان عمر المختار شيخ المجاهدين أثناء الجهاد. وتحول باستشهاده إلى شيخ الشهداء فحاز الحسنيين. كان المختار علمًا مشهوراً. فهو ابن مختار بن عمر المنفى من قبيلة «المنفة» أهم القبائل الليبية، ضمن قبائل أولاد على الكبيرة، المنتشرة فى أراضى مصر وبرقة الليبية. وكان مولد عمر المختار سنة ١٨٦١ فى قرية جنزور، التابعة لمنطقة «دفنه». وتقول رواية أخرى إنه ولد فى برقة عام ١٨٥٨، وتوفى والده المختار ووالدته عائشة، وهما فى طريقهما إلى أداء فريضة الحج.

رجاحة وصلابة

بلغ عمر السن، التى تؤهله لحفظ القرآن الكريم، فبعثه والده المختار إلى زاوية السنوسية فى الجغبوب ليقرأ فيها القرآن وما تيسر من العلوم، وقد ظهر عليه من دلائل النجابة ورجاحة العقل مما لفت إليه انتباه المهدى السنوسى، وكان صاحب الجاه العريض والسلطان النافذ فى برقة، فصار موضع اهتمامه وأحله من عنايته أعلى مراتبها. فما كاد يُتم حفظ القرآن ودراسة بعض العلوم حتى انتشر ذكره وتناولته الألسن بالثناء، واحترمته قبائل العرب لعراقة بيته ولمكانته السنوسية. ولاّه المهدى شيخًا على زاوية القصور فى الجبل الأخضر قرب مدينة المرج، حيث قام بتعليم أولاد المسلمين وإكرام من يأوى إلى تلك الزاوية من الفقراء وعابرى السبيل، وفض المنازعات بين قبائل العرب والسعى فى مصالحهم، وكان اختياره شيخًا لزاوية القصور لغرض نبيل، ذلك أن تلك الزاوية تقع فى حوزة قبيلة العبيدات، التى اشتهرت بالاستقلالية وفيها أفراد صعب مراسهم. وكان المختار لدماثة خلقه وصلابة عوده أهلاً لترويض هذه النفوس.

ونال عمر المختار لقب «السيد» من انتسابه إلى السنوسية، ووقعت أمور

عارضة اقتضت سفر المهدى إلى السودان، فاختار عمر المختار لمرافقته فى ذلك السفر الطويل. وكان عمر محل ثقة المهدى، الذى عينه شيخاً لزاوية فى السودان، واستمر نائبًا عن المهدى هناك، حتى عاد إلى برقة شيخًا لزاوية «القصور» مرة ثانية، واستمر يدير شؤونها حتى احتل الإيطاليون ليبيا، فكان أول من لبى نداء الوطن وباشر الجهاد.

شيخ المجاهدين

كان عمر المختار فى طليعة المجاهدين الليبيين، حيث أسهمت نشأته الدينية وجهاده فى السودان ضد الفرنسيين فى غرس قيمة الجهاد والكفاح من أجل الاستقرار والاستقلال والدفاع عن الدين والوطن داخل نفسه، برز مردود عمله أثناء التصدى للعدوان الإيطالى عام ١٩١١، عندما أنذرت إيطاليا السلطنة العثمانية بعدم معارضة احتلال الأراضى الليبية، وشنت بعد إنذارها الحرب فى ١٩١١/٩/٢٩ وساعدتها القوات الإنجليزية، بمنع عبور الإمدادات العثمانية إلى ليبيا عبر الأراضى المصرية، مما سهل على الطليان احتلال طرابلس الغرب وبعدها درنة وبنغازى وطرابلس، وبدأت معركة الجهاد الإسلامى الليبى ضد الإيطاليين، وقاد العلماء طلائع المجاهدين ضد الغزاة، وتصدى الفرنسيون للتونسيين، بعد أن قاد حزب «تونس الفتاة» حملة للتضامن مع الشعب الليبى ضد الاحتلال. ومن هنا بدأ التحالف الإيطالى الفرنسى ومعهما الإنجليز والإسبان، للسيطرة على شمال أفريقيا، حيث سيطرت إسبانيا على جزء من المغرب، وسيطرت فرنسا على تونس والجزائر، وسيطرت إيطاليا على ليبيا والحبشة، وسيطرت بريطانيا على مصر والسودان.

لم يهدأ العدوان الإيطالى على ليبيا، حيث استهدف المناطق العامرة بالسكان بغية القضاء عليهم تمهيدًا للاستيطان، ونتج عن ذلك نزوح آلاف الأسر عن ديارها إلى بلدان أخرى، لكن ذلك لم يحد من متابعة رسالة الجهاد. وبدأ تفعيل المقاومة بشكل أكبر ومنظم. لكن الفتن الداخلية والنزاعات العشائرية أضعفت

موقف المجاهدين فى عدد من مناطق المقاومة. وبرغم ذلك تجدد الجهاد فى «برقة» فى شرق ليبيا بقيادة الشيخ عمر المختار.

استنزاف

ازدادت شراسة المعارك، وشعر شيخ المجاهدين بخطورة الموقف، فشكل قيادة عليا للمجاهدين تكونت برئاسته وضمت القبائل العربية الليبية، التى جاءت من شبه الجزيرة العربية أيام الفتوحات الإسلامية، والقبائل الأخرى، ولم يقتصر الجهاد على أبناء القبائل، بل انضم إليهم أيضًا، عدد كبير من المجاهدين، الذين قدموا من غربى ليبيا ووسطها وشمالها. وتعاضد الليبيون ضد العدوان، مما أجبر الإيطاليين على اتخاذ خطوات إرهابية قتالية، وظن الإيطاليون أنهم بذلك قد يصلون إلى بغيتهم ويحققون هدفهم، ولكن ما أبداه عمر المختار من النشاط فى الغزو والهجوم والثبات والإقدام وشدة البأس والإيمان، أفشل مخططهم.

وقد حصل انقلاب سياسى فى الحكومة الإيطالية، بسبب الخلاف على السياسة، التى يجب اتباعها للتعجيل بالقضاء على عمر المختار.

ففى ديسمبر ١٩٢٨ استقال وزير المستعمرات فى روما وحاكم طرابلس وحاكم برقة، وأعلن موسولينى توحد الإدارة فى طرابلس وبرقة، وعين «الجنرال بادوليو» حاكمًا عليها، وكان من أشهر القادة الطليان فى الحرب العالمية الأولى واشتهر بالثبات والإقدام. وكان موسولينى يرى فيه المنقذ الوحيد للسياسة الإيطالية فى طرابلس، مما حل بها من الفشل والتذبذب طوال ثمانى عشرة سنة. وبدأ «بادوليو» مهمته بدعوة المجاهدين إلى الاستسلام للحكومة الإيطالية، ووزع منشورات فى جميع المناطق يدعو لذلك ويهدد بالعقاب الصارم، بلا رحمة لكل من يستمر فى الخروج على الحكومة. وأصدر بادوليو عفوًا عن السياسيين المبعدين، وأخذ يستعد لتنفيذ خطته، التى جاء من أجلها، وهى القضاء على حركة «السيد عمر» تمهيدًا لاستقرار السياسة الاستعمارية الإيطالية فى طرابلس. وأراد «بادوليو» أن يقضى على ثورة المختار عن طريق المفاوضات، فدعاه إليها.

وكان يعتقد أن عمر المختار قد يرضخ مقابل إصدار عفو يكفل له حياته هو ومن معه، نظرًا لموقفه الحرج من انقطاع المواصلات من كل جهة والحصار المفروض عليه.

وظن عمر المختار أن هذه المفاوضات قد تأتى بخير، وليقيم الدليل العملى على حبه للسلام أجاب طلب «بادوليو»، لبدء المفاوضات، وكان من شروط عمر المختار أن يحضر مندوب من طرف الحكومة المصرية وآخر من الحكومة التونسية ليشهدا الشروط المتفاوض عليها، وألا تتدخل الحكومة الإيطالية فى الأمور الدينية للشعب الليبى، وأن تكون اللغة العربية معترفًا بها رسميًا، وأن تفتح مدارس خاصة يُدرَّس فيها التوحيد والتفسير والحديث وعلوم الدين، وألا يُحرم الوطنيون من التعليم العالى، وأن يكون للبلاد رئيس من أهلها ويكونوا أحرارًا فى حمل السلاح للدفاع عن الوطن. لكن «السيد عمر» اكتشف أن هدف المباحثات الإيطالية سواء فى الخارج مع المجاهدين الليبيين أم فى الداخل، ترمى إلى المراوغة وكسب الوقت وتمزيق وحدة المجاهدين، وتأكد «المختار» من نياتهم فأصدر نداءه المشهور عام ١٩٢٩، ودعا مواطنيه إلى المضى فى طريق الجهاد باذلين دماءهم الزكية فداء للوطن وفى سبيل الوصول لتحقيق غايتهم المنشودة. وكان المنشور فى حيثياته يدل على صراحة عمر المختار فى سبيل الوصول إلى التفاهم، فلبى الدعوة إلى المفاوضات وطرح شروطه الأولية وقبل مد الهدنة وانتظر رد الإيطاليين، لكنهم أبوا أن يردوا عليه مع أنهم هم الذين طلبوا الهدنة، ولكنهم لم يطلبوها لتبادل الآراء، بل لتكون طريقا من طرق الخداع الحربية.

عودة القتال

وقد استعمل عمر المختار حقه فى جباية الزكاة من العرب بمقتضى شروط الهدنة، التى سقطت، وعاد القتال بين الطرفين، وامتدت أيدى الطليان إلى كل من أعطى زكاة أمواله لعمر المختار وحُكم على بعضهم بالإعدام، ودارت المعارك الحربية على الأراضى الليبية وتوافق معها حملة إعلامية قادها بشير السعداوى وشكيب أرسلان ضد العدوان الإيطالى. وتكاملت الوحدة الجهادية بين المقاتلين

والكُتاب المناضلين، واشتد سعير الحرب الجهادية، فأرسل الإيطاليون السفاح «غراتسيانى» إلى ليبيا، فاستخدم ما توافر لديه من أسلحة برية وجوية فى الحرب لإبادة الليبيين، وحاصر الحدود الليبية وزرع الألغام ووضع الأسلاك الشائكة وأطلق أيدى حكامه لتنكيل بالليبيين عن طريق «المحاكم الصورية»، التى طبقها لاحقًا. واستمرت المعارك الضارية بين قوى الحق وقوى العدوان فى ظروف غير متكافئة من حيث العدة والعدد.

احتلال الكفرة

وقامت القوات الإيطالية آنذاك بحشد قواتها، وكانت أكبر حملاتها فى تاريخ الاحتلال الإيطالى، لاحتلال «الكفرة» وهى مجموعة واحات فى صحراء ليبيا، وهى أكبر معقل للسنوسية، وفيها من الخيرات الكثير، وجاء احتلال «الكفرة» كالصاعقة على الرؤوس، وأحس بخطرها كل من يهمه أمر طرابلس.

ولم يبق منفذ لعمر المختار يتصل منه بالعالم، بعد احتلال الكفرة إلا الحدود المصرية المخفورة بجيوش إيطاليا وطائراتها، ولكن هذه الجيوش وتلك الطائرات ما كانت تمنع عمر المختار من الاتصال بالأسواق المصرية ليرسل إليها ما يغنمه المجاهدون من الطليان، ويختار منها مايلزم المجاهدين.

وعاد «غراتسيانى» من الكفرة لحصار المجاهدين من ناحية الحدود المصرية، فرأى أن وجود الجنود والطائرات لا يكفى لمنع اتصال المجاهدين بالأسواق المصرية، فأضاف إلى ذلك قوة ثالثة، هى الأسلاك الشائكة لمسافة ثلاثمائة كيلومتر، أصبح المجاهدون بعدها معزولين عن الخارج من جميع الجهات. وقد حاولوا عدة مرات اختراق هذه الأسلاك، لكنها كانت مانعًا قويًا استحال عليهم اختراقها.

المجاهد الأسير

وكان من عادات عمر المختار أن يقوم باستكشاف مواقع العدو بنفسه، ولمعرفة آفاق الهجوم عليها بغتة. وكان يرافقه من أصحابه المجاهدين ما لايزيد على

الأربعين فارسًا، وبينما هو يسير مساء يوم جمعة فى سَرِيَّة من أصحابه فاجأته جيوش الطليان، بعد أن علموا بخبره، وحاول هو وأصحابه الخروج من الوادى الذى هُم فيه، لتفادى محاصرتهم، ففاجأته طليعة أخرى من جنود المعتدين، ونشب القتال بينهم وبين العدو، وقُتلَ كثير من أصحاب عمر، كما قُتل حصانه فأوقعه على الأرض، وبينما كان يحاول النهوض رآه أحد الجنود فتقدم إليه وقبض عليه. وحضر حاكم المرج فى طائرة خاصة، وقد عرف عمر لمجرد رؤيته، لأنه اجتمع به عدة مرات فى المفاوضات، ونُقِلَ إلى مرسى سوسة، ونُقِلَ منها بحرًا إلى بنغازى ثم إلى السجن، وبقى فيه إلى يوم محاكمته فى ١٥ سبتمبر سنة ١٩٣١ حيث عُقدت محاكمته فى القاعة الكبرى للحزب «الفاشيستى» وهى دار مجلس النواب (السابق) فى بنغازى، وبعد أن اكتملت هيئة المحكمة نودى بالدعوة ضد عمر المختار لاعتدائه على سلامة الدولة، وعلى أمن البلاد ولقطعه الطريق، ثم نودى عليه لاستجوابه.

وكان أول سؤاله: لماذا حاربت الإيطاليين؟ وكان الجواب: «حاربت من أجل دينى ووطنى...».

إعدام البطل

وبعد محاكمة قصيرة مدتها نصف ساعة صدر الحكم بإعدام عمر المختار، وفى اليوم التالى مباشرة، صباح يوم الأربعاء ١٦ سبتمبر ١٩٣١ اتُخذت التدابير اللازمة بمركز «سلوق» لتنفيذ الحكم فيه، وحضر جمع غفير من سكان تلك الناحية والبوادى القريبة منها، وأُحضر جميع المعتقلين السياسيين خصيصًا من أماكن مختلفة لمشاهدة تنفيذ الحكم، وحشد الإيطاليون حشدًا كبيرًا من القوات البحرية والجوية والمشاة لهذا الغرض. وفى التاسعة صباحًا سُلِّم عمر المختار إلى الجلاد، فوضع حبل المشنقة فى عنقه. وبعد بضع دقائق صعدت روحه الطاهرة إلى ربها تشكو إليه ظلم الظالمين، وجور المستعمرين.

وبعد موته رثاه كبار الشعراء كخليل مطران وأمير الشعراء أحمد شوقى الذى قال:

ركـزوا رفاتـك فـى الرمال لواء
يستنهـض الـوادى صبـاح مسـاء
يا ويحهـم: نصبـوا منارًا من دم
يـوحى إلى جيل الغد البغضاء
ما ضر لو جعلوا العلاقة فى غد
بين الشعـوب مـودة وإخـاء
خُيِّرت فاخترت المبيت على الطوى
لـم تـبن جاهًـا أو تـلـم ثـراء
إن البطولـة أن تمـوت مـن الظمأ
ليـس البطولـة أن تـعـب المـاء

وتخليدًا لذكرى هذا الرجل العظيم، واعترافًا بفضله فى استقلال ليبيا، واستنكارًا لإعدام الإيطاليين هذا البطل، أصدرت اللجنة الشعبية الليبية، قرارًا يقضى باعتبار يوم استشهاده يومًا للحداد الوطنى فى البلاد.